البنية الحجاجية لأسلوب الفنقلات في تفسير محمد الطاهر ابن عاشور، دراسة تحليلية.

د: نسيم بوغرزة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة

مقدمة:

يعد تفسير القرآن الكريم من أجل علوم الشريعة، التي عني بها المتقدمون والمتأخرون على السواء، فتنوعت المشارب والمدارس التفسيرية، واتسمت كل مدرسة بما ميزها عن غيرها، ويعد تفسير التحرير والتنوير للأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور واحدا من أمهات التفاسير المعاصرة، لا يستغني عنه المنتهي ولا غنى عنه للمبتدئ، وهو مرتع خصب حوى العلوم والأفانين المختلفة، من بلاغة ولغة وآثار وتحريرات، جعلته بحق موسوعة تفسيرية، وسنحاول في هذا البحث أن نقف على بعض أساليب الفنقلات فيه، محاولين تخريجها من الناحية الحجاجية للإجابة عن جملة من التساؤلات، منها:

ما أهم السمات التي اتسم بها هذا الأسلوب؟

ما التأويلات التي سارت فيها الفنقلات؟

كيف أثر أسلوب الفنقلات في إرساء قواعد بنية حجاجية؟ وكيف تداولها؟

أولا: أسلوب الفنقلات.

يعد أسلوب الفنقلات لونا من ألوان الإثارة والتنبيه في العلم، ولفظة الفنقلة منحوتة من أسلوب الاستفهام الذي سرى كثيرا خاصة عند المتأخرين ومن عبتراته: فإن قال قائل قلتُ فإن قيل قلتُ فإن قلتَ قلتُ، ونحوها، وهي لفظة مجموعة على المسلامة، ووزنها فعلَـلَة، كالبسملة الحولقة والحمدلة والسبحلة والهيلَلة والحـَيطَة،[1] أي أن توجيه رفع قافها مرجوح.

---

[1] السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، (1/ 372)

أما الفنَقلة في الاصطلاح فهي أسلوب تعليمي عند المتقدمين والمتأخرين قائم على السؤال المشوق والجواب المحقق، فنقلات الزمخشري ص52، وتكون بسبق كلام المعترض أو السائل بإحدى العبارات المتقدمة،[2] ويؤتى بهذا الأسلوب التعليمي لعدة أغراض منها: أنه يستحث البحث عن الجوابي والتنبيه إلى ما يأتي.

أن إيراد السؤل يبين عن وعي المتكلم وحسن فهمه.

أنه يفتح للمتلقي باب البحث وحسن المحاورة والنقاش.

أنه ينبي عن إلمام المتكلم بحال المخاطب الذي قد يرد عليه السؤال فيكون قد أبان عن إشكاله.

أن المتكلم يورد تفصيل المسألة بعدد من الفنقلات.

أنه أسلوب من أساليب بيان الأوجه المتعددة في المسألة الواحدة.

كما أنه يكشف عن احتمال الوارد قبل وروده فيجيب قبل أن يسأل من مثل لبيك يزيد ...

يتضمن النص الخطابي حجاجا مائزا، بخلاف القول والسؤال فلا يتضمنان حجاجا بينا بل يسعى المخاطب إلى بناء البنية الحجاجية بتحليلهما ويوظف مجموعة من الأساليب والروابط كما يوظفها الناصّ، منها ما يلي:

الأساليب الحجاجية والروابط المنطقية:

1 الروابط المنطقية: وهي مجموع الروابط التي تصل بين قولتين أو خطابين أو قضيتين تكون بينهما علاقة معنوية إما اتصالا وإما انفصالا، ومن هذه العلاقات:

أ. **السببية: وهي الروابط التي تصل بين طرفين كلاميين بينهما رابط علة بأن يكون أحدهما سببا للآخر، وتظهر هذه الروابط في مثل:** لأن بما أن بسبب،

[2] خالد عزيز الموصلي، الفنقلات في كتب القراءات العشر جمعا ودراسة، ص10

ب. **الافتراض: وهو تقدير علاقة بين الطرفين قصد بناء حجاج متنام مؤسس. خاصة إذا عرفنا أن الفرض يقتضي فارضا (الفروق 402) ويظهر نحو:** إذا فإنَّ لو إنْ

ج. **الغاية: وهي القصد الذي يؤول إليه الكلام إما ضمنيا أو لزوما في إحدى العلاقات الدلالية نحو** لكي لأجل قصد بغية

د. **الاستنتاج: وهو ما يخلص إليه الخطاب من نتائج تكون تقريرا حتميا لما تقدم، ومن أمثلته** بناء على، لهذا، إذن، وعليه، نتيجة ذلك، تأسيسا على ما سبق...

هـ. **التعارض أو المقابلة:** وهي الروابط الدلالية التي يبنى فيها الحجاج على علاقة ضدية بنفي اللاحق وإثبات السابق أو العكس، كما في نحو: غير أن ، في حين، بخلاف، لكن، على الرغم، بالمقابل...

3. الأفعال الكلامية:

نشأت نظرية أفعال الكلام بين أحضان فلسفة اللغة مع الفيلسوف اللغوي فتجنشتاين؛ حيث إن تراثه الفكري لم يكتسب العناية الحقيقية إلا حين تبناه فلاسفة مدرسة أكسفورد خاصة جون أوستين الذي اتضح فيه أثر فتجنشتاين جليا.[3] ونظرية أفعال الكلام هي أول فكرة نشأت منها اللسانيات التداولية، ومن أهم مراجعها، بل يمكن التأريخ منها للتداولية؛ حيث ارتبطت اللغة بإنجازها الفعلي في الواقع. وهي تسمية اقترحت في سنوات الستينات من جون أوستين (J.Austin)، واستأنفت من طرف تلميذه جون سيرل (j.Searl) قبل أن تكون مقبولة من طرف كل اللسانيين الذين يعتدون بالنظرية الملفوظية[4] .

والأفعال الكلامية من الأدوات التي تدخل بصورة كبيرة في الحجاج، ويعد الهدف من الخطاب هدفا أساسا للحكم على النص بحجاجيته من عدمها ومن ثم إقناع المتلقي والتأثي فيه؛[5] لأن الهدف

---

[3] عبد الحليم معزوز، أثر أفعال الكلام في توجيه دلالة النص الأدبي، ص56

[4] خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية، ص86

[5] صابر الحباشة، التداولية والحجاج، ص50

من الحجاج هو إزالة الشك عن المرسل إليه[6] والفعل الكلامي التوجيهي المقدم في صورة الاستفهام من أقوى وأنجع الأفعال الكلامية حجاجا ويعتمد عليه كثيرون في فعلهم الحجاجي، إذ إن طرح السؤال يمكن أن يضخم الاختلاف حول الموضوع إذا كان المخاطب لا يوافق المتكلم في وجهة نظره إلى الجواب، كما يمكن أن يلطّف السؤال الموقفَ بين طرفي الخطاب في حال الاختلاف.[7]

4-السلم الحجاجي:

هو مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين:

1- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

2- كل قول كان في السلم دليلا على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى منه.[8]

ويمكن تمثيله بالصورة التالية:

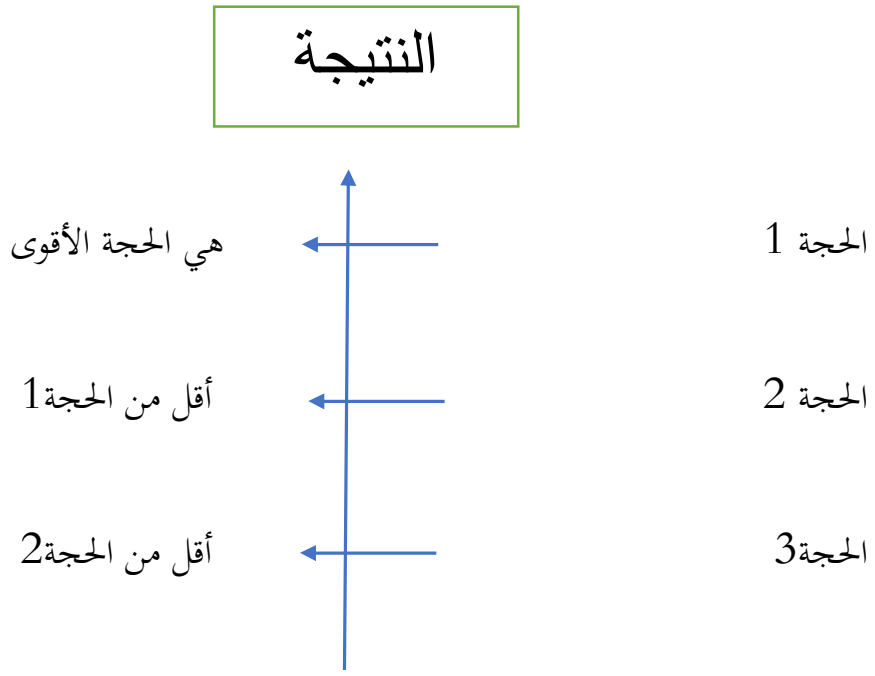

[6] عبد الهادي ظفر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص482

[7] المرجع نفسه، ص 284

[8] طه عبدالرحمن، الليان والميزان أو الكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998م، ص277.

ويعد أسلوب الفنقلات تعليليا يفيد الربط بين النتيجة والحجة من أجل التفسير، بل تجمع بين قضيتين متباعدتين قصد تقريب الثانية أو بيان حكمها إما قبولا أو ردا، كما يسعى إلى بيان ما يمكن أن يكون عارضا لقبول الخطاب أو الفكرة.

وإذا كانت الفنقلات استفهاما لا يطلب جوابه – بحكم كون المخاطِب كفيلا بالجواب– فهي من قبيل الاستفهام التقريري الذي لا يطلب جوابه، فالمتكلم مراع لحال المخاطبين قاصد لغايات عدة بالتنبيه والتشويق والتعليم والحث على إعمال الفكر.

آليات الحجاج في فنقلات التحرير والتنوير:

وقفت على خمس صور للفنقلة عند الشيخ ابن عاشور وهي تكشف عما يليها في بيان القصد منها:

الصورة الأولى:

جاء في تفسير سورة الفاتحة[9] في قراءة (اهدنا الصراط المستقيم) أَنَّ كَثِيرٍ فِي رِوَايَةٍ قُنْبُلٍ قَرَأَ بِالسِّينِ وهي سبعية، وَالْقِرَاءَةُ بِالصَّادِ هِيَ الرَّاجِحَةُ لِمُوَافَقَتِهَا رَسْمَ الْمُصْحَفِ وَكَوْنِهَا اللُّغَةَ الْفُصْحَى.

فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ كُتِبَتْ فِي الْمُصْحَفِ بِالصَّادِ وَقَرَأَهَا بَعْضُ الْقُرَّاءِ بِالسِّينِ؟ قُلْتُ إِنَّ الصَّحَابَةَ كَتَبُوهَا بِالصَّادِ تَنْبِيهًا عَلَى الْأَفْصَحِ فِيهَا، لِأَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ وَاعْتَنَوْا عَلَى عِلْمِ الْغَيْبِ فَالَّذِينَ قَرَأُوا بِالسِّينِ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَتْرُكُوا لُغَةَ السِّينِ لِعِلْمِهِمْ بِهَا فَعَادَلُوا الْأَفْصَحَ بِالْأَصْلِ»

نجد أن في هذه الفنقلة روابط منطقية منها علاقة **الغاية**: وهي القصد الذي يؤول إليه الكلام بأن الصحابة رضي الله عنهم كتبوا رسمها بالصاد لأجل التنبيه على الوجه الْأَفْصَحِ في القراءة، كما نجد فيها علاقة **السببية** التي تربط بين الرسم ووجه تقديمه بأن الصحابة يكتبون بلغة قريش.

---

[9] محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، 1984م، (190/1)

السلم الحجاجي:

يسير السلم الحجاجي في هذه الصورة وفق المخطط التالي:

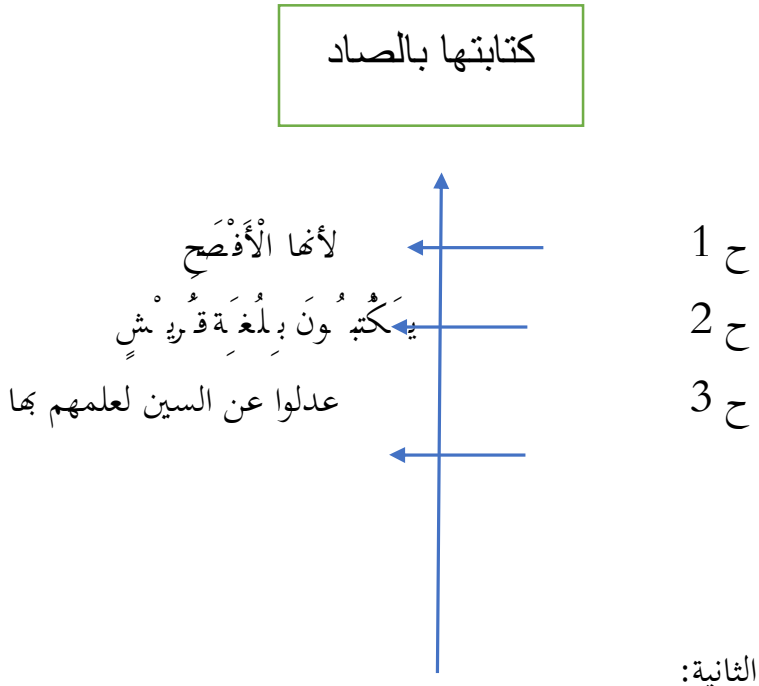

الصورة الثانية:

جاء في «التحرير والتنوير» (1/ 359):

«فَإِنْ قِيلَ: لَمْ يُكْنِ الرَّدُّ عَقِبَ نُزُولِ الْآيَاتِ الْوَاقِعِ فِيهَا التَّمْثِيلُ الَّذِي أَنْكَرُوهُ فَإِنَّ الْبَدَارَ بِالرَّدِّ عَلَى مَنْ فِي مقاله شُبْهَة رائجة يَكُونُ أَقْطَعَ لِشُبْهَتِهِ مِنْ تَأْخِيرِهِ زَمَانًا.

قُلْنَا: الْوَجْهُ فِي تَأْخِيرِ نُزُولِهِ يَقَعُ الرَّدُّ بَعْدَ الْإِتْيَانِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْعِبَرِ الْمُقْتَضَاهَا مَقَامُ تَشْبِيهِ الهيآت، لِذَلِكَ كَمَا يَمْنَعُ الْكَرِيمُ عَدُوَّهُ مِنْ عَطَاءٍ فَيُلْزِمُهُ الْمَمْنُوعُ بِلَمْزِ الْبُخْلِ»

نلحظ في هذه الفنقلة أن الشيخ قد حاول بينا لبس قد يعرض للمتلقي وهو عدم تأخير البيان عن وقت الحاجة، فيمثل الشيخ لهذا الفهم بمثال لمز العدو للكريم إن منعه العطية. ويؤدي **التمثيل** دورا كبيرا في دحض حجج الفهم، وهي المادة التي يقدمها المجادل ليزيد من تصديق المخاطب.[10]

[10] حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ودلالاته دراسة نظرية تطبيقية في البلاغة الجديدة 16/04-17.

الصورة الثالثة:

قال الشيخ (6/ 122) نقلا عن «الْأَحْكَام» : **فَإِنْ قِيلَ فَمَا أَكَلُوهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِ الذَّكَاةِ كَالْخَنْقِ وَحَطْمِ الرَّأْسِ فَالْجَوَابُ:** أَنَّ هَذِهِ مَيْتَةٌ، وَهِيَ حَرَامٌ بِالنَّصِّ وَإِنْ أَكَلُوهَا فَلَا نَأْكُلُهَا نَحْنُ، كَالْخِنْزِيرِ فَإِنَّهُ حَلَالٌ لَهُمْ وَمِنْ طَعَامِهِمْ وَهُوَ حَرَامٌ عَلَيْنَا- يُرِيدُ إِبَاحَتَهُ عِنْدَ النَّصَارَى

استعمل الشيخ هنا مسلكا عقليا في بيان الاستفهام وهو القياس على مسائل الحل والتحريم بأن قاس في الجواب المستفهم عنه -وهو الميتة- بحكم إلحاقها بالخنزير لاختلاف حكمه بين المسلم وغيره.

الصورة الرابعة:

«التحرير والتنوير» (6/ 149):

«**فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ أُغْرِيَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَهُمْ لَمْ يَزَالُوا إِلْبًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ؟ فَوَجْهُهُ**: أَنَّ الْعَدَاوَةَ بَيْنَهُمْ ثَابِتَةٌ فِي الدِّينِ بِانْقِسَامِهِمْ فِرَقًا، كَمَا قَدَّمْنَاهُ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ [171] عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَذَلِكَ الِانْقِسَامُ يَجُرُّ إِلَيْهِمُ الْعَدَاوَةَ وَخَذَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. ثُمَّ إِنَّ فِرَقَهُمْ كَانَتْ مُنْقَسِمَةً وَمُتَحَارِبَةً، وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا تَأَلَّبُوا فِي»

المقصود أن الوصف المتقرر في هذا الجزء ضرب من الإخبار عن حقيقة قد يجهلها المتلقي، فتجعل المخاطب في معرض بيانها ووصف الحال والمآل الذي يكون عليه القوم (اليهود)،

الصورة الخامسة:

جاء في التحرير والتنوير:(325 /27) «وَذَكَرَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ الْخَجِيُّ التُّونِسِيُّ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى شَرْحِ الْأَشْمُونِيِّ لِلْأَلْفِيَّةِ الْمُسَمَّاةِ «زَوَاهِرَ الْكَوَاكِبِ» عَلَى كِتَابِ «الْبُرْهَانِ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ» هَذَا الِاسْمَ الْمُرَكَّبَ بِهِ كِتَابَ أَحَدِهِمَا لِكَمَالِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الزَّمْلَكَانِيِّ وَالثَّانِي: لِابْنِ أَبِي الْأُصْبُعِ أَنَّهُ قَالَ: **فَإِنْ قِيلَ لِمَ أُكِّدَ الْفِعْلُ بِاللَّامِ فِي الزَّرْعِ وَلَمْ يُؤَكَّدْ فِي الْمَاءِ؟ قُلْتُ لِلزَّرْعِ لِأَنَّ** وَنَبَاتَهُ وَجَفَافَهُ بَعْدَ النَّضَارَةِ حَتَّى يَعُودَ حُطَامًا مِمَّا يَحْتَمِلُ أَنَّهُ مِنْ فِعْلِ الزَّارِعِ أَوْ أَنَّهُ مِنْ سَقْيِ الْمَاءِ، وَجَفَافُهُ مِنْ عَدَمِ

السَّقْي، فَيُخْبِرُهُ أَنَّهُ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِهِ حُطَامًا فِي حَالِ نُمُوِّهِ لَوْ شَاءَ، وَإِنْزَالُ الْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ مِمَّا لَا يُتَوَهَّمُ أَنَّ لِأَحَدٍ قُدْرَةً عَلَيْهِ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى اه

الصورة السادسة:

قال الشيخ (30/ 112): «**فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَاذَا لَمْ يُعْلِمِ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وَقْتِ حُضُورِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ بِمَا تَضَمَّنَهُ هَذَا التَّعْلِيمُ الَّذِي ذَكَرْتُمْ.**

قُلْنَا: لِأَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي يَحْصُلُ عَنْ تَيَقُّنِ غَفْلَةٍ أَوْ إِشْعَارٍ بِخَفَاءٍ يَكُونُ أَرْسَخَ فِي النَّفْسِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَسُوقِ عَنْ غَيْرِ تَعَطُّشٍ وَلِأَنَّ وُقُوعَ ذَلِكَ بَعْدَ حُصُولِ سَبَبِهِ أَشْهَرُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَلِيَحْصُلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَزِيَّةُ كِلَا الْمَقَامَيْنِ: مَقَامِ الِاجْتِهَادِ وَمَقَامِ الْإِفَادَةِ.

وَحِكْمَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يُعْلِمَ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذَا الْجَمِيعِ مِنْ عَلِيِّ الِاجْتِهَادِ لِتَكُونَ نَفْسُهُ رَغَّافَةً لِمَا عَنْ مِثْلِهِ وَلِيَتَأَسَّى بِهِ عُلَمَاءُ أُمَّتِهِ وَحُكَّامُهَا وَوُلَاةُ أُمُورِهَا»

نجد من الروابط المنطقية بين طرفي الفنقلة علاقة **السببية** التي تربط بين تأخير العلم عن الواقعة حتى يكون العلم المتجدد أرسخ في الذهن وأدعى للثبات، إذ إن العلم بعد الغفلة أو الجهل سبب لرسوخه وأحرى بقبوله لهذا كانت حكمة تأخير العلم، فدلل على هذه العلاقة بثلاثة روابط سببية، هي (لِأَنَّ الْعِلْمَ وَلِأَنَّ وُقُوعَ أَنْ يُعْلِمَ اللَّهُ رَسُولَهُ). ولو تتبعنا السلم الحجاجي فيها لتبين أن قيام هذه المعللات جاء في ترتّب دقيق؛ حيث جاءت وفق الترتيب التالي:

- أَنَّ مَرْجِعَ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَضِيَّتَهَا إِلَى تَصَرُّفِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالِاجْتِهَادِ فِيمَا لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ فِيهِ
- وَأَنَّهُ جَرَى عَلَى قَاعِدَةِ إِعْمَالِ أَرْجَحِ الْمَصْلَحَتَيْنِ فَقَدْ كَانَ يَخْشَى تَبِعَةً مِنْ فَوَاتِ إِيمَانِ الْمُشْرِكِ بِسَبَبِ قَطْعِ الْمُحَاوَرَةِ مَعَهُ وَالْإِقْبَالِ عَلَى اسْتِجَابَةِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُسْتَرْشِدِ
- أَنَّ اجْتِهَادَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُخْطِئُ بَعْدَ مَا نَصَبَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ

ويمكن تمثيلها كما يأتي:

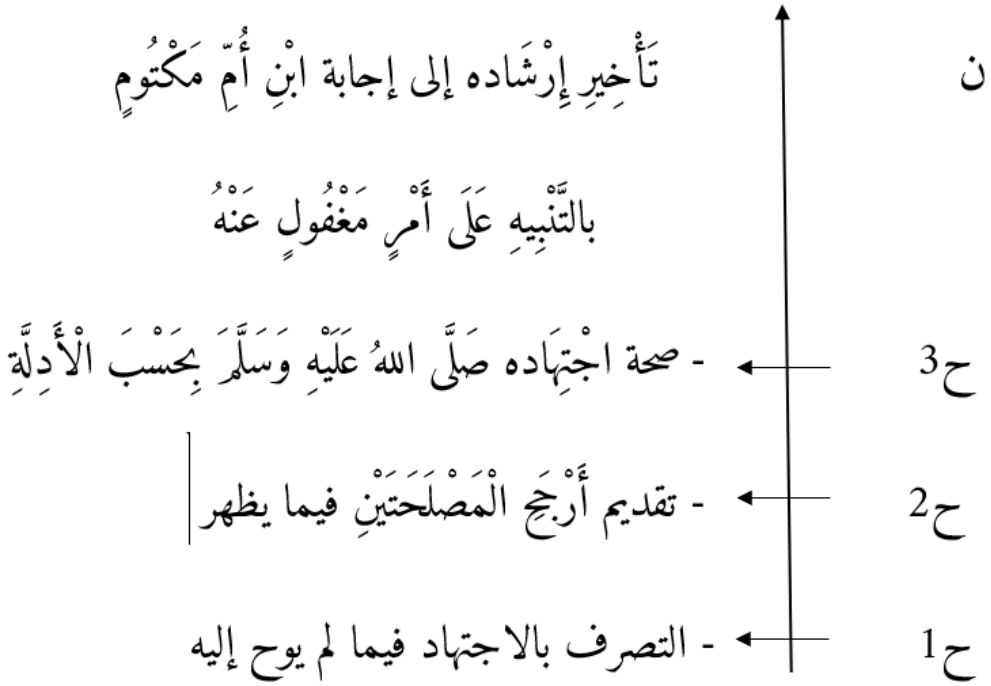

خاتمة:

يمكن إجمال ما توصل إليه البحث في النقاط التالية:

- أن الفنقلات أسلوب تعليمي يقوم على السؤال المقدر.
- أن التسلسل في تقرير حجج السوال سار بصورة متعالية من الأصغر إلى الأكبر
- أن الاعتناء بالمقام وبالغرض الدلالي يعد من صميم نظرية الأفعال الكلامية
- أن أكثر مسائل الفقنقلات مستدركة على المسائل الأصول.
-

قائمة المصادر ولمراجع:

1- جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها،

2- حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ودلالاته دراسة نظرية تطبيقية في البلاغة الجديدة. دار الروافد الثقافية بيروت، 2013.
3- خالد عزيز الموصلي، الفنقلات في كتب القراءات العشر جمعا ودراسة،
4- خليفة بوجادي في اللسانيات التداولية، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009م.
5- صابر الحباشة، التداولية والحجاج، دار الثقافة للنشر، ط1، 1986.
6- طه عبدالرحمن، الليان والميزان أو الكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998م.
7- عبد الحليم معزوز، أثر أفعال الكلام في توجيه دلالة النص الأدبي، مجلة علوم اللغة العربية، جامعة الوادي
8- عبد الهادي ظفر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2004م
9- محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، 1984م